

مسكن الطلبة الجامعيين

وحاجتنا إلى إيجادها

بقلم الأستاذ صلاح الدين الشريف المحامى

ليس أزمّ لجامعتنا الناشئة وإخواننا الجامعيين ، ولا أعون على دعم قوائم الروح الجامعى الوليد ، في فترة تكوّننا العلمى العالى ، من جامعة تستند كلياتها إلى طلبة خلقتهم بيئة المسكن الراقى واطمأنوا إلى لون من الحياة الاجتماعية الطيبة الظاهرة ، يحيونها بعد رفق التحصيل وعناء الدرس ، بيئة مثلى يحق لنا أن نعتد بها اعتمادنا بما تضمه الجامعة من كليات ، وما تحويه الكليات من قاعات فسيحة وأبهاء رحبة وعمد رائمة وحجر منظمة ومداخل وجبهة ونقوش جميلة وشمس ساطعة وأهوية مسارية ، وعندئذ نحس بذلك التجاوب الاجتماعى الموموق بين بيئة السكن وبيئة الدرس ، بين حياة الصباح الشريفة المشرقة وحياة في المساء لا يصح أن تغل عن حياة الصباح كما لا وإشرافا وحيوية .

فالحياتان حلقتان مشتبكتان ، والصلة بينهما وثيقة لا انفصام لها ، والخروج الجامعى هو حقا ثمرة تفاعل الحياتين جميعا ، أو هو ضحية الذبذبة وفقدان الانسجام بينهما .

وبعد فالمشروع قديم والحاجة إليه محسومة وغير منكرة ، وسبل التنفيذ درست دراسة وافية وما يحتاج إليه من مال وما يلزمه من نفقة ليس يصعب على ولادة الأمر رصده في الميزانية بعد تقسيمه مثلا ، على سنوات مائة ثلاث ، إن لم تكن أقل لا أكثر ، فلم يبق أمامنا من عقبة غير البطء الذى اعتدناه في التنفيذ باسم التريث والتهمل .

إن نظرة عابرة ، وليست فاحصة ، نلقها على لون الحياة التى يميهاها السواد الأعظم من إخواننا الجامعيين ، أولئك الذين قذفت بهم بلدان الريف ودمسك إلى عاصمة القطر في طلب التحصيل والعلم ، كافية حقا لأن نقنعنا بأننا — كشعب متحضريجب الرقى ويدعو إليه — نأثم أقبح الإثم في حق أجيالنا الناشئة ، من أبناء اليوم ورجال الغد الحافل المنشود . إنها حياة مريضة مفككة لاهية أبعد ما تكون عن استقرار يؤهل لتحصيل قوى ، أو نظام محبوبك يعين على حياة جاهدة مضيئة قوامها الدرس والطلب .

إننا نخطئ أبن الخطأ إذا زعمنا أن من بين طلبة الجامعة عددا يذكر ، في طوقه أو في طوق أولياء أمره ، أن يوفروا لهم أسباب حياة معتدلة يطمنون في ظلها إلى مواصلة عملهم ومتابعة إنتاجهم ، بعيدين عن طوازئ العيش المزعزع أو مفاصد البيئة الملوثة ، إذ

الحقيقة أن الغالبية من ذلقة محدوده الدخل تضطرها ظروف المادة إلى أن تعيا ، طيلة فترة التحصيل والعربية ، حياة هي أبعد ما تكون عن الراحة والطمأنينة والاستجمام المادى والمعنوى الذى يهبهم للتفريح العظلى وابدىن . وإنما محتاج فى التدليل على هذا الواقع الصراح إلا إلى أمر واحد يتكرر فى كل عام ويضج له أولياء أمور الطلبة بالشكوى ، وهو اضطراب بكليات الجامعة سنويا إلى فصل عدد كبير من طلبتها الذين يعجزون عن تسديد مصاريف الدراسة ولو عرفت أن ولى أمر الطالب وكذلك الطالب نفسه يبذلان المستحيل فى سبيل توفير المال اللازم لسداد الأقساط ومصاريف الكتب والدفاتر ولوازمهما ، لما شككت فى أن هذا الجهد المبذول فى سبيل سداد الأقساط خشية الفصل والحرمان من اختبارات أحر العام إنما يتم على حساب الجانب الأخر من حياة الطالب الجامعى حتى ليضطره الحال فى هذا الجانب إلى شدة الإقتصاد ولكن على حساب جسمه وعقله وملبسه ومعنوياته وبجمله حاله . ومن ثمة هذا الهزأك الملج والسقم البادى على وجوههم الشاحبة وأبدانهم الضاوية ، وكأنى بها تصرخ فى غير ما انقطعاع : لعداء المغنى ، المسكن المريح ، الرياضة اللازمة للمنشطة لعضلات المقوية للأعصاب ، وهى بعمرى عضلات وأعصاب حطمها الإجهاد تحطيا .

لست أحتاج إلى أيمان مغلظة لأؤكد لقارئ هذه السطور ، أنى شاهدت طيلة تحصيلى الجامعى أقرا كبيرا من إخوانى الجامعيين يعيشون فى الأثناء الريفية المجاورة للجامعة حياة القرية فى وسط أضواء المدينة ، وليتها القرية النموذجية فى مساكنها ونظامها ، ولكنها تلك القرية المتخلفة عن غمود الجود والفقير والتدهور ! حجر ضيقة قابضة معتمة رطبة وخذاء نافه محدود ثم جلد صابر على توفية الدرس حقه من العناية المجددة والوفاء المرهق ، إنها لفئة تليقة قائمة ، ترضى من زامن شبابها بالحرمان لتأمل منه لكهولتها حياة مجيدة عالية !

أما أبناء الموسرين من أغنياء الريف وعددهم محدود ، فهؤلاء يولون وجوههم شطر البنسيونات ، وألحجر المفروشة لقاء أجور لا يستطيعها غير هؤلاء . وهى إن كانت تحوى حقا أسباب الراحة اللازمة للسكن الكامل أو الشبيهه بالكامل ، لا تخلو من منغصات أو شوائب تآنى على محاسنها وتسدنها صفة المسكن الطيب والمأوى الرائق المصون . وهى منغصات وشوائب كثيرة أنكرها تلك الرينة اللازبة التى تقترن باسم " البنسيون " ، وجو الاستياحة والجماح الذى يستشعره طالب زایل مراحل الضغط فى ظل الوالدين خلال مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى ، وبات يتلهف على سويحات " الحرية " وسط الأضواء الخاطفة واللهو المبذول بعيدا عن العين الرقية واليد الزاجرة والنصيحة الهادية ، ذهيك بهذه الضوضاء المتصلة والضجيج المستمر وما يخلفه للأعصاب المتعبة خلال الدراسة يومية من زهق وتفترق وتوتر ، لأن هذه المساكن تقع عادة فى سره المدينة العاجة نصاخية .

وهل من عجب بعد هذه الحياة المضنية المنككة ، أن يصبح الجامعون في نهكة بدنية ملازمة ، ووعكة مرضية دائمة ، ونحود عقل ظاهر ، ويحسون كراهية للألعاب الرياضية واصحة ، حتى تفيض تقارير أطباء الجامعة بمشكوى من تلك " الأيميا " الخبيثة و " البهارسيا " الموبقة وأمراض النظر وطمغه من جراء سوء الاضاءة وعدم كفايتها في مساكن الغالية منهم ، وغير أولئك من أمراض وأسقام ؟ أليس من المؤلم أن يسفر الكشف انطبي على الطلبة المتقدمين للتدريب العسكري عند بدء ادخاله في الجامعة ، عن نتائج مؤلمة تدل على عدم صلاحيتهم لحياة عسكرية مجدية . حقا لا زالت لائل التقليدي القديم قيمته " العقل السليم في الجسم السليم " مما يحصره الوطن من طاقة الانتاج المناسب في فترة الشباب ، فترة التفتح والاكتمال والازدهار ، يرجع إلى تلك الحياة الشاحبة الذاوية التي يجيهاها الجامعون في مساكنهم التافهة ، ولعمري ما أمر التناقض بين قترتين زمايتين في حياة الجامعي اليومية ، فترة الصباح وسط القاعات المشمسة المهواة والنظافة العاصرة والنظام السائد والفحامة البادية ، وفترة المساء المظلمة الكثيرة تحت سقوف هذه المآوى الخاوية المجدبة .

لم يبق ثمة شك إذن في أن أمر التثقيف والتقويم لا يعتمد على الأبنية الدراسية الفخمة بمكاتبها وأساتذتها وقاعاتها فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى وجوب ضمان الغذاء الصحي الكامل الملبي لحاجات الجسم طيلة مراحل نموه ليساعده على التفرغ للأعمال العقلية والعضلية وضمان المسكن الصحي الذي يجد فيه الطالب الجامعي مأوى آمينا لراحته واستجمامه ، وإضاءة صحية ملائمة يطالع فيها دروسه ويعنى بواجباته ، على أن يكون مسكنا بعيدا البعد كله عن الضجيج والوضواء ومفاسد المدينة ومغريات الكاذبة لحياطتهم من شرور العدوى الخلقية الفاتكة .

ولقد أجمع المعنيون بشؤون الجامعة عندنا من صفوة المثقفين ورجال التربية على أن أساس التمجيل بتحقيق هذه الضرورات إنما يكون بإقامة مساكن للطلاب مستوفية لشروط الصحية والمرافق الضرورية من حمامات رشاشة ، ساحة وباردة ، وغرف استجمام وراحة تحفل بأوان السلويات المراقية من عقلية ورياضية وأخلاقية ، وغير ذلك من كل ما يساعد على الثقافة الكاملة ويعين على صحة العقل والبدن .

وهل تحسب أن مثل هذه الحياة المنككة المضطربة تدعو إلى تفاهم فكري أو تصامن اجتماعي أو تعاون أدبي بين جموع غرباننا من طلبة الجامعة ؟ كلا عمري . فإنا لعل البقيص من ذلك ، إذ تزيد من مدى الفجوة الاجتماعية بين الجميع ، وتوحى نظرية الضبقات في بيئة العلم التي يستوى أمام نحر الانتساب إليها هؤلاء جميعا من فقراء وأغنياء ، ثم تزيد على ذلك بأن تحرم طبقة الدخل المحدود من متع الحياة البريئة وسلوياتها لطيفة ،

بل من ضرورات لا غناء لهم عنها من غذاء ودواء ، لا زال في وسع الدولة كفالتها لهم ، كما فعلت ذلك دول غيرها من قبل .

لقد صاح بالأمس القريب مدير فاضل للندوة هدية ، وأهاب بوزارة المعارف أن تنصف الطلبة الغرباء الوافدين على معاهد المتصورة ، واقترح عليها أن تبنى لهم مبنى أو مباني تسع ألف طالب ، وأكد وقتئذ أن نفرا من رجال الأعمال على أتم أهبة لتقيام بهذا العبء في حالة عجز الوزارة عنه ، على أن يسدّد الطلبة تكاليفه على مدى فترة من الزمان بما يدفعونه لقاء السكن الرافق من أجر لا يكاد يكون مذكورا .

وكان لجامعة الأزهرية فضل السبق في إنشاء مساكن لطلبتها من الغرباء سواء في القاهرة أم الاسكندرية أم الزقازيق أم أسيوط ، ولا زالت هذه الجامعة تساعد طلبتها هؤلاء إلى حد كبير لتحتفظ لهم أجسامهم القوية التي يدينون بها للريف ، لعيشهم في الهواء الطلق مدة سنين الأولى وخلال إجازاتهم الصيفية في نهاية كل عام .

ولا ننكر أن سعادة أحمد لطفى السيد باشا قد ألح منذ خمس سنوات مضت ، في تنفيذ مشروع مدينة الجامعة وميادينها الرياضية ، وقد وفق فعلا إلى الحصول على اعتماد لها في عهد المرحوم أحمد عبد الوهاب باشا بمبلغ تسعين ألف جنيه تدرج في ميزانية سنوات مالية ثلاث وقد كان هذا المبلغ يرصد في الميزانية سنة بعد الأخرى ثم لا يلبث أن يرجع آفلا إلى الخزانة في معظمه تقريبا إن لم يكن في تمامه ، وإذا سألتني عن السر أجبنيك بأن علمه عند غلام الغيوب .

يقول الأستاذ الدكتور محجوب ثابت في أحد تقاريره الهامة التي يدأب على رخصها إلى ولاية الأمر في الجامعة " إنه إن كانت مساكن الطلبة الجامعيين وتغذيتهم من الأهمية بمكان ، فيلزم تنفيذها على عجل مع مطعم للطلبة يحتم فيه أكل الغرباء ولو وجبة واحدة ظهرا أو مساء بقيمة معقولة لا تتعدى القرشين ونصف القرش لكل ما يلزم من مواد زلايلة وبروتونية وفيتامينات ومواد نشوية وسكرية والمواالح والسطات والفاكهة أو حلوى مغذية . ويجب أن يعم ذلك في المدن كالقاهرة والاسكندرية وغيرها من المدن التي تكثر فيها معاهد التعليم " .

ويقول الدكتور الفاضل في ناحية أخرى من تقريره في صدد تهيئ مشروع المدينة " ومعروف أن أمر تربية النشء ومباني معاهده فحسب لا يكفي بل يجب إيجاد مساكن يأوى إليها هذا النشء ليستجم ويعوض ما فقده بجهوده في عمله اليومي عقليا بقبول الدراسة وعضليا وعسكيا بميادين الرياضة ، ليكون التثقيف قويا سليما . وإذا ما غذى هذا النشء غذاء صحيا كافيا لتعويض ما يفقده لاطراد نموه في كل درجات التعليم من الزامى وابتدائى

وعال، فبذلك فقط يكون التعليم بل أقول التربية نائمة على أسس ودعامات صحيحة قوية تقاوم أسباب الضعف وتبني للجهد الحيوي هذا النشء عقلا ونفسا وجثانا وللدفاع عن وادي النيل المقدس“.

والأستاذ الدكتور طه حسين بك في كتابه القيم عن ” مستقبل الثقافة في مصر “ يتناول حياة الطلبة الصحية والاجتماعية ، والبيئة الجامعية ، ويصور الإهمال الصحي الذي يتغير في أجسام الطلاب والإهمال الاجتماعي الذي يطيح بأخلاقهم مدلا على التفكك في البيئة الجامعية الذي لا يحقق شيئا من الثقافة العامة. حتى اذا فرغ من بيان أوجه النقص في هذا كله ، اخذ يسرد أوجه الطب لها جميعا ، لومن بينها مدينة الجامعة .

وقد كتب مرة الدكتور أحمد محمد ابراهيم الأستاذ بالجامعة المصرية في مقال له عن التعليم الجامعي في فرنسا ” ... وحدث في سنة ١٩٢٥ أن أنشئت ” مدينة الطلبة “ وبها نحو خمسة عشر بناء ، وتحرس الدول الأجنبية على إقامة أبنية خاصة بالطلبة الذين يدرسون في فرنسا . وللطلبة الفرنسيين الذين يأتون من الأرياف نحو أربعة أو خمسة أبنية يسكنون بها مقابل أجور طفيفة ، وفي هذه الأبنية يتعمم مراعاة الهدوء التام والنظام ، ولهذا الأبنية مطاعم ومكتبات ، ولكل بناية مدير للاهتمام بشؤونها يعاونه في ذلك مجلس إدارة لتنظيم شروط السكن والمعيشة . والغرض الأساسي لهذه الأبنية هو إيجاد روح التعاون بين الطلبة الغريباء والذين يفدون من مختلف الأقطار ، وكذلك بين الفرنسيين الذي يحضرون من أقاليم مختلفة ، فإذا ما رجع الطلبة إلى وطنهم يكون لديهم أثر باق من الحياة الجامعية “ .

وبعد فإذا أقول؟ الجميع عندنا من المشتغلين بأمور الجامعة يستشعرون حاجتنا القصوى إلى إنشاء هذه المدينة ، بنفس الهمة والعناية اللتين توجهان إلى إقامة تلك المعاهد الضخمة في أفنية الجامعة الرجبية .

إن جولة قصيرة حول جامعات العالم تثبتنا حقا بأننا لازلنا متخلفين في أخص شؤون الروح الجامعي حين سبقنا غيرنا إلى تحقيقه ودعمه ، بمراحل بعيدة !

إن الجامعة الوحيدة التي يقال بعدم وجود مساكن لها هي جامعة لندن ولكن هل نعرف ماذا أعدت لطلبتها في سبيل راحتهم والعناية بأجسامهم وعقولهم ؟ إن ولاة الأمر هنالك يمدون كشفا بأسماء العائلات التي تسمح للطلبة الغريباء بالسكن معها ، فضلا عن الوطنيين ، بعد تحقق الجامعة من صلاحية ذلك من الوجهين الصحية والخلقية .

وحدث ولا حرج عما أعدته بقية جامعات إنجلترا واسكتلندا وسويسرا وألمانيا وإيطاليا وغيرها من مساكن ومطاعم ومشافي وعيادات وملاعب ومسارح ودور للمرح والحياة والسلويات الأخرى والحدائق الأريحية وغيرها مما يوفر للطلاب الجامعي حياة حافلة حائثة حقا تجعله صحيح البدن سليم العقل مفتوح الملكات لهضم الدراسة الجامعة العالية والعمل على الإنتاج النافع في هدى من تعاليتها .

ولا تكبان في أن للهبات الكريمة التي يعود بها من حين إلى آخر، ذوو الأريحية والكرم المطبوع من أرباب تلك الأمم البهضة، أزا حليلا في إقامة كثير من هذه المدن وتأسيس شيت من مبانيها ومعاملها. وإن هذا الكرم الحامى العلمى ليتجلى حقا في أروع مظهر له في ربوع إنجلترا والولايات المتحدة الأميركية، حتى يكون مثلا أعلى يجب أن يتسمه أغنياء العالم طرا .

فما مديانا إذن إلى تحقيق هذا الحلم الذهبى السعيد، الذى طال انتظارنا له في مرآة الأحلام بل في رقطة الحقائق وصحوة الأفكار؟

لعلنا نعلم الحكومة ظلما بينا، وخاصة في مثل هذه الظروف القاسية. إذا كلناها وحدها عبء القيام بهذا المشروع الكبير، دون أن يشاركها شرف العمل في سبيل إنجازه طائفة المومنين عندنا من الجانب ووطنين .

إن اكتاب الأرباب لهذا المشروع أعدته عملا من أجل الأعمال الوطنية، لناشئة هذه الأمة التي تريد لنا مخلصين أن تتكلم من كل شيء، بل لعله واجب من أقدس الواجبات القومية التي يكون عندها المنخ والبذل في غير ما تمهل ولا إواء .

عدوها أيها الموسرون لونا من ألوان الاكتاب لمستشفى من المستشفيات، أو معهدا من المعاهد أو مشروعا من المشروعات الاجتماعية الأخرى التي تعوزنا في فترة انتقالنا من عهد الجود الى عهد حياة، وإذا كان للشاق غرضها في تصحيح مريض الأبدان، ولمعاهد العلم مقاصدها في استتيف غفل الأذهان، فإن لهذه المساكن والمأوى آثارها البعيدة في تصحيح الأذهان والأبدان والأحلاق والمعنويات .

لقد حق للدكتور كزبل زيرمان أستاذ الدراسات الاجتماعية العليا في جامعة هارفارد أن يصبح في أحد مؤلفاته قائلا: "ويصبح معه كل متصفا، " أن الأمة التي تعتمد على ترك الحكومة تعالج وحدها أخطرها يعترض المجتمع من مشكلات، لمي أمة حكمت على نفسها بالجود والعقم وأثبتت أنها عجزت عن فهم معاني التضامن الاجتماعى، وهذا يبشر بأن مقومات النهوض فيها تتحد إلى موت بطل، مندرج " .

أما واجب الحكومة، فهو البدء جديا في رصد ما يلزم من مال لهذه المؤسسة الجديدة، ونفسيهها على سبطين أو أكثر، كما لو كانت مشروعا من مشاريع السنوات، بل أن تظل مكتوفة لأيدى إلى وقت توفى المال .

وأرى، ويرى معي كثير من رجال الجامعة، أنه إذا أعوزتنا الآن تكاليف البناء والإشاء فلا أقل من استئجار بناية مناسبة من مباني الأحياء الراقية المجاورة وإعدادها بما يرم من لوازم السكن الكامل، ثم تحريها بأجور هيئة لطبقة ذوى الدخل المحدود من طلبة الجامعة، نسقدهم من بخر ميسر كتب خالية، ونوفر لهم لونا من الحياة الاجتماعية رفق وأكل ما

صلاح الدين الشريف المحامى